

أدب الرحلة عند أبي القاسم سعد الله دراسة في ضوء النقد الثقافي

The travel Literature of Abi Al-Qasim Saad Allah - A Study in the Light of Cultural Criticism

حفيظة زين

Hafida Zine

جامعة محمد بوضياف - المسيلة، hafida.zine@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2023/05/16

تاريخ القبول: 2024/01/27

تاريخ الاستلام: 2022/11/21

الملخص: عرف الإنسان الرحلات منذ القدم كما اشتغل بتدوينها والكتابة عنها محدثا وواصفا وناقدا لما يراه ويشاهده لينتج لنا نصوصا مكتظة بالمعرفة والأخبار والعلوم والثقافات والآداب، نصوصا تتميز بحمولات ثقافية عديدة تصور مختلف المشاهد الأنثروبولوجية والإثنية لمختلف المجتمعات والحضارات الإنسانية. مما جعل دراسته من منظور مناهج النقد الأدبي فقط تفوت علينا فرصة كبيرة في اكتشاف حمولاته الثقافية وأنساقه المضمره التي قد تعيد بناء وعينا من جديد بهذه الثقافات والحضارات والسياقات التي غرض عنها الطرف طيلة الفترات الماضية، أي أصبح من الضروري دراسة هذه النصوص من منظور ثقافي جديد واكتشاف حقيقة ما تخفيه من أنساق مخاتلة للأنساق الفنية الظاهرة التي دأب النقد الأدبي على دراستها واستهلاكها.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي، الرحلة، النقد الثقافي، النسق، المضمهر.

Abstract

Man witnessed traveling since ancient time. He also worked on writing about those trips; he described and criticized them. So, he produced texts full of knowledge, news, sciences, culture and literature. These texts are characterized with several cultural quantities depicting various anthropological and ethnic scenes for different human societies and civilizations. From the literary criticism methods' perspective, we may lose a great opportunity to discover their cultural quantities and hidden patterns, which may reconstruct our awareness about these cultures, civilizations and contexts, which have been neglected throughout the past periods. So, it becomes necessary to study these texts, according to a new cultural perspective, and discover their contents including the hidden artistic patterns, which has always been studied by the literary criticism. **Key words:** literary criticism, travel, cultural criticism, pattern, hidden.

المؤلف المرسل: زين حفيظة، الإيميل: hafida.zine@univ-msila.dz

1. مقدمة:

عرف الإنسان الرحلات منذ القدم كما اشتغل بتدوينها والكتابة عنها محدثاً وواصفاً وناقداً لما يراه ويشاهده لينتج لنا نصوصاً مكتظة بالمعرفة والأخبار والعلوم والثقافات والآداب، نصوصاً تتميز بحمولات ثقافية عديدة تصور مختلف المشاهد الأنثروبولوجية والإثنية لمختلف المجتمعات والحضارات الإنسانية، مما جعل دراسته من منظور مناهج النقد الأدبي فقط تُقوّت علينا فرصة كبيرة في اكتشاف حمولاته الثقافية وأنساقه المضمرّة التي قد تعيد بناء وعينا من جديد بهذه الثقافات والحضارات والسياقات التي غُصَّ عنها الطرف طيلة الفترات الماضية، لقد أصبح من الضروري دراسة هذه النصوص من منظور ثقافي جديد واستثمار الدراسات الثقافية وما تنتجه للباحثين في اكتشاف حقيقة ما يخفيه هذا النوع من النصوص الثرية من محمولات متعددة وأنساق مخاتلة غير الأنساق الفنية الظاهرة التي دأب النقد الأدبي على دراستها واستهلاكها. إذ لا يمكننا تصور أن الرحالة الذي يعيش ويعايش أفراد كثيرين ومجتمعات متعددة وتقاليد وعادات مختلفة لمدد طويلة قد تصل إل سنوات، والتي قد يصل فيها حتى لاكتشاف ما هو مستور ومغمور في المجتمعات، أن يكتب لنا نصوصاً تنتهي مع الدراسة الفنية التي تقدمها الدراسات التي تعتمد مناهج النقد الأدبي.

فماهي هذه الأنساق المتخفية التي تحملها النصوص الرحلية والتي لا يمكنها إلا أن تكون متعددة وكثيرة كونها تنتج عن يوميات أو سنوات يعيشها الرحالة بكل تفاصيلها في مجتمعات يمر بها أو يستقر فيها لمدة معينة؟ وما هي الأنساق الثقافية التي يستبطنها الأدب الرحلي عند سعد الله بالذات، وكيف تشكلت؟

2. أدب الرحلة: يعد أدب الرحلة من الفنون الأدبية النثرية القديمة التي عرفت عند الغرب وعن العرب معاً، وذلك لأن " الرحلة قديمة قدم الانسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الأولى حتى وقتنا هذا وإن اختلفت دوافع الرحيل وتباينت وسائل السفر وتنوعت مادة الرحلة ومع ذلك فإن كتابات الرحالة أياً كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية تصور إلى حد كبير بعض ملامح العصر الذي عاشوا فيه كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها سواء كانت الرحلة فعلية أم من نسيج الخيال (فهيم، 1989، صفحة 14)، " وقد ارتبط الأدب الرحلي بسفر الأفراد وترحالهم سواء كان ذلك بإرادتهم أو كانوا مجبرين على المستوى الداخلي أو الخارجي ولأغراض متنوعة؛ منها العلمي ومنها السياحي الثقافي الترفيهي للتعرف على الآخر ومواطنه وحضارته ومنها الديني، فالإنسان في حياته بحاجة ماسة إلى الرحلة والانتقال لتحصيل خبري الدنيا والآخرة، يتحرك وينتقل من مكان إلى آخر سعياً وراء الرزق، أو أداء لواجب العبادة لله، من نحو تحصيل علم نافع، أو أداء فريضة الحج أو العمرة (الصعيد، 1997، صفحة 8)؛

فلأسباب كثيرة ومتنوعة ارتحل الانسان مكتشفا عالما غامضا وجديدا عنه. ورغم ذلك لازال هذا الفن محل دراسة واهتمام لحد الآن، سواء أكان من ناحية المصطلح أم من ناحية المفهوم بسبب تعاقبه مع الكثير من العلوم والفنون ومجالات الحياة، مما يجعل الدارس له يتيه مرغما بين التعريفات والمفاهيم المتعددة والمختلفة للدارسين؛ إذ كل ينظر إليه من منظور خاص. فيعرفه مجدي وهبة أنه " مجموعة من الآثار الأدبية التي تناولت انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة. وقد يقدم فيها تسجيلا دقيقا لما يراه من عادات وأخلاق ووصف للمناظر الطبيعية التي يشاهدها. ويسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد" (مجدي وهبة المهندي، 1984). وطبعا لهذا الفن خصوصياته التي تتمثل في كونه لونا أدبيا له بواعثه وأهدافه وخصائصه، وله أدوات فنية، ورؤاه المضمونية. وكل ذلك يشكل مع كل رحلة أدبية وفق غاياتها ومهارات صاحبها في الملاحظة والتسجيل" (مجدي وهبة المهندي، 1984، صفحة 16).

إذن أدب الرحلات هو " حلقة وصل بين مختلف الحضارات الإنسانية خاصة مسألة التبادل الثقافي، ومرجعياته المذهبية والفكرية التي أسست لعلاقات أكثر إشراقاً بين حضارات الشرق والغرب ليصبح الإنسان فيها مورد تلك الثقافات بما يحمله من حمولات ثقافية متعددة تعيد للإنسانية وجودها الجمعي، فعدت تلك الثقافات المترامية الأطراف تجسد تراكماً ثقافياً يتشارك الجميع في إنتاجه بشكل مستمر دون إشكال فكري يحول أثناء عملية التواصل الفكري، وهذا الأمر جعل من النسق الثقافي عند كل مجتمع له خصوصية في تكوينه المعرفي، فمثلا الثقافة العربية الإسلامية لها خصوصية تجعلها تتمايز عن غيرها من الثقافات الإنسانية خاصة الثقافة الغربية المسيحية، وغيرها من الثقافات الإنسانية" (رضا، التعدد الثقافي وإشكالية التلقي في رحلة ابن فضلان، 2019).

من خلال ما سبق يظهر أن أدب الرحلة فن مثقل بحمولات ثقافية عديدة تصور مختلف المشاهد الأنثروبولوجية، والإثنية لمختلف المجتمعات والحضارات الإنسانية مما يبين أن دراسته بمناهج النقد الأدبي فقط تقوت علينا فرصة كبيرة في اكتشاف حمولاته الثقافية وأنساقه المضمرة التي قد تعيد بناء وعينا من جديد بهذه الثقافات والحضارات والسياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي غص عنها الطرف طيلة الفترات الماضية، أي أصبح من الضروري دراسة هذه النصوص الرحلية من منظور النقد الثقافي واكتشاف أنساقها المختلفة وإعادة بناء وعي تاريخي جديد بهذه النصوص. فإذا تتبعنا صورة النماذج النثرية الرحلية وجدنا فيها العديد من مفارقات الأخبار، وغرائبية الأحداث التي تصور حالة الإنسان، وتعدد موارثه الثقافي الذي بات

يشمل " العرق والجنس والجنوسة والدلالة والإمتاع " (رضا، التعدد الثقافي وإشكالية التلقي في رحلة ابن فضلان، 2017).

3-النقد الثقافي (Cultural criticism): من حيث الدلالة العامة يمكن أن نقول أن النقد الثقافي " نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها " (البازغي، 2002، صفحة 309)، أما كمصطلح فقد عرف عند الغرب منذ السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، علما أن الشائع قبل ذلك هو مصطلح الدراسات الثقافية التي تعود نشأتها رسميا إلى مركز برمنغهام المخصص لهذه الدراسات، وإلى الجهود النظرية والتطبيقية الريادية لكثير من المفكرين في بريطانيا وفي صدارتهم ريموند وليامز و إ. ب. طومسون، وريتشارد هوغارت وستيوارت هول. كما أن الجماعة المدعوة بمتقفي نيويورك هم الذين قاموا بربط الأدب بصورة وثيقة مع الثقافة، الشيء الذي مكّنه من ممارسة أشكال عديدة من البحث تتراوح من السيرة الفكرية إلى تاريخ الأفكار، ومن دراسة النوع الأدبي ذي القاعدة العريضة إلى التحليل النفسي من دون أن يتخلوا لا عن الشرح النصي ولا النقد التقويمي ولا التحليل الاجتماعي.

تبلور مصطلح النقد الثقافي مع (فنسنت ليتش) "مسميا مشروعه النقدي بهذا الاسم تحديدا ويجعله رديفا لمصطلحي الحداثة وما بعد البنيوية، حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما أنه خطاب، وهذا ليس تغييرا في مادة البحث فحسب لكنه أيضا تغيير في منهج التحليل، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية من دون أن يتخلّى عن مناهج التحليل النقدي الأدبي" (الغذامي، 2005، الصفحات 31-32). وتستند منهجية ليتش إلى التعامل مع النصوص والخطابات ليس من الوجهة الجمالية ذات البعد المؤسساتي، بل تتعامل معها من خلال رؤية ثقافية تكتشف ما هو غير مؤسساتي وما هو غير جمالي" (حمداوي، 2016، صفحة 88).

إن النقد الثقافي طرح فكري جديد على مجتمعنا العربي، ظهر لأول مرة مع الناقد السعودي عبد الله محمد الغذامي حين أعلن في مؤتمر في تونس موت النقد الأدبي وميلاد النقد الثقافي الذي ألف فيه كتابه الأول "النقد الثقافي دراسة في الأنساق الثقافية العربية" ثم أرفده بمجموعة أخرى من الكتب في مجال الدراسات الثقافية. إن النقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي يدرس الأدب الفني والجمالي باعتباره ظاهرة ثقافية مضمرة، أي يربط الأدب بسياقاته الثقافية غير المعلنة. ومن ثم لا يتعامل النقد الثقافي مع النصوص والخطابات الجمالية والفنية على أنها رموز جمالية ومجازات شكلية موحية بل على أنها أنساق ثقافية مضمرة تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والسياسية والسينمائية... أي أن النقد الثقافي لا يتعامل مع

النص الأدبي الجمالي باعتباره نصاً، بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية تضمّر أكثر ما تعلن (لغيتيري، 2020). كما يدرس النقد الثقافي النصوص والخطابات من خلال الانتقال من اللغوي الجمالي إلى ما هو ثقافي وتاريخي وسياسي وإيديولوجي ومؤسّساتي. وهو يهدف " إلى تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، وتروم من وراء ذلك إلى اختيار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية كما أنها ليست دراسة ثقافية، فالهدف الرئيسي لها فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة، وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي في إطار ما هو جلي في حد ذاته... وهي ليست مجالاً للدراسات عديمة الجدوى لكنها التزام تجاه إعادة هيكلة البناء الاجتماعي... لذلك فالدراسات الثقافية تهدف إلى فهم شكل الهيمنة في كل مكان، وتسعى إلى تغييره وخاصة في المجتمعات الصناعية الرأسمالية " (بعلي، 2008، صفحة 19)، ويضيف الناقد بأن للنقد الثقافي " مهمة متداخلة ومتراطة متجاوزة ومتعددة، مما أحدث تغييراً مهماً في منهج تحليل الخطابات واستثمار المعطيات النظرية والمنهجية لحقول معرفية متداخلة كالسوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والتفكير الفلسفي. زيادة على الأدب وما يشتمل عليه من نظرية الأدب والجمال والنقد، وبمقدوره أيضاً أن يفسر نظريات علم العلامات والتحليل النفسي والنظرية الماركسية والاجتماعية والأنثروبولوجية" (بعلي، 2008، صفحة 20)، وقد استمد النقد الثقافي آلياته ومعداته من علوم متعددة، مع أن هناك علوم لها حضورها في حياة الإنسان كانت أكثر تجلياً في الجانب الإجرائي للنقد الثقافي، إذن النقد الثقافي لا يتناول أدبية النص، بل يتجاوز ذلك إلى معرفة المعاني الخفية التي يحملها النص (الغذامي، 2005، صفحة 13). فيهتم بالأنساق الثقافية التي يحملها النص ليس بوصفه مادة جمالية، بل على أنه نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمّر ما هو مضاد للعلن، أي أن النص قد يضم معنيين، معنى ظاهراً ومعنى آخر باطن، فيقوم التحليل الثقافي على المقابلة بينهما وإبراز ذلك المعنى الباطن من أجل تجاوزه والتسامي عليه (الغذامي، 2005، صفحة 162).

ونجد جميل حمداوي يوضح مواضيع النقد الثقافي دون أن يفصله عن الدراسات الثقافية فيقول: " نتناول الدراسات الثقافية بصفة عامة والنقد الثقافي بصفة خاصة، المواضيع ذات الطبيعة الثقافية والذهنية والفكرية، سواء أكان ذلك في المجتمعات الطبيعية البدائية أم المجتمعات الثقافية المتمدنة أي: "دراسة ثقافات المجتمع المختلفة ودراسة نظمته وقيمه وعاداته وتقاليده وأنماط تفكيره وتصوره والتعريف كذلك بوسائله وفنونه وإنسانياته... ومن ثم فالنقد الثقافي هو الذي يدرس النصوص والخطابات ضمن أنساقها الثقافية المضمرة، سواء أكان ذلك في الشعر، أم الرواية، أم القصة، أم المسرح بل يمكن القول أن النقد الثقافي يمكن تطبيقه في جميع

المجالات الأدبية والفنية، وبالتالي يدرس النقد الثقافي مواضيع الطابو (المرأة والجنس والشذوذ والسحاق والواطية والاغتصاب...) وعلاقة الأنا بالغير والهويات المهمشة" (حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، 2015، الصفحات 01- 10) . أما عن العلاقة بين النقد الثقافي والنقد الأدبي فيقول لينش إن النقاد مختلفان، ولكنهما يشتركان في بعض الاهتمامات ويمكن لمثقفين الأدب أن يقوموا بالنقد الثقافي دون أن يتخلوا عن اهتماماتهم الأدبية (البازغي، 2002، صفحة 308).

4- **النسق الثقافي:** قدمه الغدامي كمفهوم مركزي تتمحور حوله نظريته فيرى أن: " الأنساق الثقافية هي أنساق تاريخية أولية وراسخة ولها الغلبة دائما وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي، المنطوي على هذا النوع من الأنساق وقد يكون ذلك في الأغاني أو الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات، والنكت وكل هذه الوسائل هي حيل بلاغية جمالية تعتمد على المجاز، وينطوي تحتها نسق ثقافي ونحن نستقبله لتوافقه السري وتواطئه مع نسق قديم منغرس فنيا" (الغدامي، 2005، صفحة 70). كما يرى الغدامي أنه " فيروسات ثقافية قاتلة، وهي تحتلنا وإن كنا ندعي أنها ليست فينا، ولها قدرة على إضمار نفسها والتخفي تحت صيغ مضمرة، وليس لنا إلا محاولة كشفها وتعريضها من باب تسمية المرض باسمه كما يفعل الطبيب" (الغدامي، 2005، صفحة 162). أما كلود ليفي شتراوس فقد نقل مصطلح النسق إلى المحيط الثقافي لي طرح فكرة أن الأبنية الاجتماعية الملموسة، والظواهر الثقافية المختلفة إنما هي محكومة بنيات وقوانين خفية، كامن في اللاوعي الإنساني وهو ما يقتضيه بحثا صريحا في البنيات الثابتة في العقل نفسه". (جعفر، 2018، صفحة 55). مما يجعل النسق الثقافي هو مرضا ثقافيا متمكنا من المجتمع بمختلف مكوناته نرفضه ظاهريا لكننا نستبطنه في ممارساتنا للأسف ونشجع المحركات الثقافية التي تضمن وجوده، واعتبر الغدامي سلطة النسق سلطة جبرية لا يمكن تجاوزها ولا القفز عليها. وتهدف دراسات النقد الثقافية إلى محاولة لتوريط المثقف/الناقد في هم مجتمعه مباشرة بعيدا عن اللغة البلاغية، التي تتراوح بين تفكيك ذلك الهم بلغة أكاديمية متعالية عن الواقع وبعيدة عن المساهمة في حله، وبين الانغلاق على بنية النص دون تجاوزها (كني، بلا تاريخ).

يمكن أن نلخص مقاربة النقد الثقافي بأنها نظرية لا تهتم بتحليل الأعمال الأدبية واكتشاف قوانينها الداخلية وأبعادها الجمالية، التي تعتبرها أنساقا ظاهرة مخاتلة تخفي عيوبها نسقية مضمرة عديدة. بل إنها مقاربة تقوم على خلق عدد من التداخلات المعرفية التي تستند إلى حقول وروافد ثقافية مختلفة، من أجل استتطاق

النصوص ومواجهة البياضات ومناطق الصمت، وذلك بهدف ملامسة الأنساق المضمرة وكشف فعلها المضاد للوعي النقدي.

5- أدب الرحلة عند سعد الله والأنساق المضمرة: يعتبر سعد الله موسوعة فكرية بحق، فهو باحث ومؤرخ وهو من رجالات الفكر البارزين في الجزائر، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف، ومؤلفات، وترجمات، ولد بضواحي بلدة قمار بولاية الوادي جنوب شرق الجزائر في الأول من يوليو سنة 1930 حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، درس بجامع الزيتونة من سنة 1947 حتى 1954. درس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في القاهرة، وحاز على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962. ثم انتقل إلى أميركا في السنة نفسها، حيث درس في جامعة منيسوتا التي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الإنجليزية سنة 1965. إضافة إلى اللغة العربية، أتقن اللغة الفرنسية، والإنجليزية، ودرس الفارسية والألمانية. إذ جمع في رصيده الكثير من العلوم والتخصصات فترك لنا ثروة فكرية ثمينة لا ينكرها أحد تمتد من التاريخ إلى الأدب شعرا ونثرا على النقد الأدبي وتحقيق المخطوط إلى الترجمة وأدب الرحلة، توفي في 14 ديسمبر 2013. هذا الأخير الذي سوف نركز على دراسته وتحليله من خلال مقارنة النقد الثقافي باعتبار النص الرحلي ملتقى لعديد الثقافات والعادات والتوجهات والطقوس الاجتماعية والدينية مما يشكل مجالا خصبا للدراسة الثقافية التي تستبطن الأنساق المتخفية وراء الأنساق المعلنة المخالطة للقارئ.

5، 1 نسق البحث عن الذات وتشئت الهوية: طالما ارتبط الفعل الرحلي بالحميمي والذاتي، فمن خلال تجربة السفر والتنقل يطل الرحالة عن ذواتهم المتمثلة في تمظهرات الرحلة المكانية والزمانية، وهو ما تجلى في الفعل الرحلي عند سعد الله من خلال مجموعة من الأنساق والثنائيات المتقابلة، فيبدو هذا النسق واضحا من خلال رحلته إلى المغرب سنة (1973)؛ حيث نجده منذ بداية سرد رحلته يشير إلى قلة اتجاه الرحالة عامة والجزائريون خاصة إلى المغرب وانبهارهم بالرحلة إلى المشرق رغم الثراء المعرفي والأدبي الكبير والمتنوع الذي تعرفه مكباتها وخزائنها، كما يستغرب عدم تدوين الرحلات القليلة التي كانت إلى المغرب والتي من بينها رحلة ابن حمدوش التي قام هو نفسه بتحقيقها؛ حيث يقول " وإذا كان القرن قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو الشرق رحلة ابن عمار ورحلة الورتيلاني فقد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب هي رحلة ابن حمدوش " (سعد الله، 2009، صفحة 209). ويستمر الرحالة في تأكيد أهمية التوجه في رحلات نحو المغرب وتعظيم قيمتها فيقول: " لا أكتف نفسي أن الرحلة كانت ذات فائدة عظيمة " (سعد الله، 2009، صفحة 209)،

فبطريقة غير مباشرة يبدو سعد الله ممتعض ومثألم من علاقة الدول المغاربية ببعضها وتشتتها جغرافيا وفكريا واقتصاديا ناشدا الوحدة، ويظهر ذلك في أسلوبه التهكمي: " نحن المغاربة نتحدث كثيرا عن الماضي المشترك ونتطلع أكثر إلى المستقبل المشترك ويؤكد رغبته المكبوتة في وحدة هذه الذات التي هي في الأصل وطن واحد ودين واحد ولغة واحدة إنه وطن فقد هويته التي أصبح أبناؤه يحملون بها في لا شعورهم ولا وعيهم" ونجد ذلك ظاهرا حين يقول سعد الله مبتهجا عند وصول طائرته إلى مطار الرباط " شعرت عندئذ أن الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة فقد تجمع فيها الجزائريون والمغاربية والتونسيون" (سعد الله، 2009، صفحة 229)، ثم يؤكد بعد زيارته للمكتبات وجولته في الرباط حسرته غير المعلنة وحيرته عن المسؤول عن هذه الفجوة التي تفصل بين الدول المغاربية ومن المسؤول عنها: " لم أر إلا القليل من انتاجنا الأدبي في المكتبات المغربية والبعض الجرائد التي تصل المغرب بعد أسبوع...لذا عذرت شكوى إخواننا المغاربة من عدم وصول انتاجنا الأدبي إليهم" (سعد الله، 2009، صفحة 238).

2.5 نسق صراع العربية الفرنسية: يتكلم الرحالة بانبهار وإعجاب كبيرين عن حالة اللغة العربية في المغرب؛ حيث الكلام بالعربية والإدارات بالعربية والوثائق بالعربية وأسماء الشوارع بالعربية ووفرة الكتب القديمة والحديثة بالعربية وليس هناك عقد ولا حساسيات كتلك التي تركها الاستعمار في بعض البلدان الأخرى، مما يظهر لنا أسفه غير المعلن عن حالة اللغة في وطنه وما يعيشه الوطن من ضياع للهوية اللغوية من خلال صراع اللغة الوطنية الأصلية مع لغة المستعمر الدخيلة، وكيف وقد كان سعد الله أوائل المناضلين والمدافعين عن العربية والعروبة والتعريب والهوية الوطنية بكل مكوناتها، ويردف منبها مرة أخرى "الناس يتكلمون في الشوارع والدكاكين والمكتبات والحافلات ودور السينما بالعربية وقلما تسمع كلمة أجنبية" (سعد الله، 2009، صفحة 239).

3.5 نسق اقضاء الأنثوي: قد يبدو من الغريب أن نذكر هذا النسق في رحلة حديثة وفي نص رحلي لأبي القاسم سعد الله إلا أن النسق لا يتعلق بأبي القاسم سعد الله نفسه لكنه يتعلق بالمجتمعات التي زارها وعاشها وهو ما سيتضح من خلال تحليلنا، لكون سعد الله هو ذلك العالم والمعلم والمفكر المتحرر الذي جاب بلدانا عربية وغربية كثيرة وعاش فيها دون أن يواجه أي مشكلة ودون أن يذكر هذه القضية أو يكون من مؤيديها، إلا أن هذا النسق يتسلل من بنية المجتمعات التي زارها الرحالة، حيث يبدو أنها لا تعطي أهمية للمرأة ولا تحضر في محيطها الاجتماعي والثقافي، فإذا كان الرحالة يصف كل ما تقع عليه عيناه وما يصادفه في البلدان التي يقصدها ويصف الأماكن والمؤسسات والهيئات والعادات والتقاليد لتلك الأماكن والبلدان ، إلا أننا

لا نكاد نلمح ذكرا للمرأة أو لمعادلاتها في رحلات سعد الله إلى المغرب أو شبه الجزيرة العربية، أو رحلاته الداخلية، لا بالإيجاب ولا بالسلب، حيث لم تظهر المرأة في تلك البلدان كفاعلة مما يدعو الكاتب لوصفها أو لرسم صورتها، وهو الذي عكف على ذكر كل صغيرة وكبيرة صادفته في رحلاته وليس ذلك فقط بل بدقة كبيرة وتأريخ مضبوط. مما يبين غيابها عن المشهد الاجتماعي والثقافي وإن صح التعبير تخييبها من طرف الرجل الذي قد تمثلت هينات أو مؤسسات رسمية أو تقاليد أو أعراف.

تظهر بوضوح سيطرة النسق الذكوري في المجتمع وعدم اعترافه بالأنثى سواء كجنس مقابل للرجل، أو كفهوم الأنثوي (كعنصر مؤثر في المجتمع من خلال وظائفها في التربية والتعليم والاقتصاد) أو كمكون ثقافي في هذه البلدان العربية التي طالما عانت فيها المرأة من الاقصاء والحرمان من التعليم والمشاركة في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، مما يحرم المجتمع عامة من قوة فعالة ومتميزة في بناء هذه المجتمعات، والاستفادة من طاقات هائلة كامنة عمل الرجل على تخييبها بمبررات واهية ليس إلا لإرضاء رغبات مكبوتة، والاحتكام لتقاليد وأعراف بائدة.

5، 4 نسق تهميش الفكر والمعرفة: يبدو هذا النسق من خلال رحلات سعد الله الداخلية إلى خنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة سنة 1980. حيث يصور لنا الرحالة بعض المناظر المؤسفة أثناء ذهابه للبحث عن بعض المخطوطات، خنقة سيدي ناجي التي كانت ملتقى لطلبة العلم من مختلف البلدان وبخاصة العربية من خلال الزاوية الناصرية والزاوية الرحمانية ، لقد تأثرت بالاستعمار من جهة ثم أثر عليه الإهمال فيما بعد في مرحلة الاستقلال، حيث لم تجد الرعاية والاهتمام مما تسبب في ضياع كنوز معرفية كبيرة وثمينة وعدد غير قليل من الكتب والمخطوطات التي كان الطلبة والعلماء يتدارسونها وينهلون منها في مختلف العلوم، حيث يقول سعد الله عن خنقة سيدي ناجي: " لم تلق العناية كباقي مدن القطر الأخرى....القرية التي كانت عروسا أصبحت عجوزا" (سعد الله، 2009، صفحة 275). لماذا تم إهمال المراكز العلمية التي كانت منارة لقرنين من الزمن كيف للمؤسسات الرسمية من جهة وللمجتمع من جهة أخرى أن يفرط في هذه المكاسب العلمية التي لا يمكن أن تعود إن هي ذهبت.

6. خاتمة: من خلال ما سبق رأينا أن النقد الثقافي يهدف للكشف عن الأنساق الخفية في النص والتي لا يظهرها النص وصاحبه لمجموعة من الأسباب أشرنا إليها في متن الدراسة، وقد وقفنا على بعض الأنساق وليس كلها إذ يرتبط كشف الأنساق الثقافية في النصوص الأدبية بالقراءة التأويلية للقارئ؛ مما يجعلها تتعدد وتختلف نسبيا من قارئ لآخر. وتعتبر الأنساق الثلاثة (نسق البحث عن الذات وتشئت الهوية، نسق صراع

العربية الفرنسية، نسق تهميش الفكر والمعرفة) بعض الأنساق الثقافية التي لم يعلنها النص الرحلي وصاحبه بطريقة مباشرة سواء أكان ذلك عن قصد أو كان عن غير قصد، إلا أنها جاءت كأنساق مختلة في النص الرحلي لأبي القاسم سعد الله؛ فهي لا تبدو واضحة للمتلقي وللقارئ لكن من خلال هذه المقاربة حاولنا الوقوف عليها وكشفها باعتبارها أنساقا قارة في تلك المجتمعات وفي تلك الفترة، ورغم وجودها الواضح في المجتمع وممارستها اليومية في الحياة، إلا أنه لا يتم الاعتراف بوجودها ولا يصرح بها، وذلك لمجموعة من الأسباب السياسية والاجتماعية والدينية مما يجعلها لا تظهر كأنساق معلنة بل تختفي خلف البنى اللغوية والجمالية.

وفي نهاية هذه الدراسة يبقى النص الرحلي نصا ثريا ثراء تجارب الرحالة الذين يكتبونه فهو يجسد تجارب حياة متنوعة من حيث المكان ومن حيث الزمان، وكذا من حيث البنى الاجتماعية والمكونات الثقافية لتلك المجتمعات التي يمر بها الرحالة ويخالطونها، لهذا ستبقى هذه النصوص بحاجة لدراسات كثيرة لتبوح بكل مكوناتها ومحمولاتها، ولعل الدراسات القادمة سوف تكشف عن ذلك.

قائمة المراجع

- أبو القاسم سعد الله. (2009). تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: عالم المعرفة.
- جميل حمداوي. (2016). نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة. المغرب: دار النابغة للطبع والنشر والتوزيع.
- حفناوي بعلي. (2008). مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- حمداوي، ج. (2015). النقد الثقافي بين المطرقة والسندان. المغرب: دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني.
- سعد علي المرعب جعفر. (2018). النسق الأثنوي في ديوان عليّة بنت المهدي. مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية.
- عامر رضا. (17، 01، 2017). التعدد الثقافي وإشكالية التلقي في رحلة ابن فضلان. تم الاسترداد من <https://jilrc.com/archives/9961:https%3A%2F%2Fjilrc.com>
- عامر رضا. (17، 01، 2019). التعدد الثقافي وإشكالية التلقي في رحلة ابن فضلان. تم الاسترداد من <http://jilrc.com/archives/9961>
- رضا <https://jilrc.com/archives/9961>
- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي. (1997). الرحلة في الإسلام آدابها وأنواعها. القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتابة.
- عبد الله محمد الغدامي. (2005). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- فهم، ح. م. (1989). أدب الرحلات. الكويت: عالم المعرفة ن المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.
- مجدي وهبة، كامل المهدي. (1984). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. ط2: .
- ميجان الرويلي ، سعد البازغي. (2002). دليل الناقد الأدبي. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- ياسين كتي. (بلا تاريخ). الأنساق الثقافية في مجموعة أناشودة المطر: بين محاولات التسامي وغلبة النسق. تم الاسترداد من <https://www.nashiri.net2020>
- <https://www.nashiri.net/index.php/critiques-and-reviews/book-reviews/6296>